وقفــات مـــع فتـــح مـــكـة من خلال السيرة النبوية [*]

د. مبارك إبراهيم التّجاني [**]

مُقَدِّمَة:

الحمد لله وحـده، صـدق وعـده، ونصر عبـده، وأعـزَّ جنده، وهزم الكفر وحده، نحمده ونشكره، حمداً وشـكراً يليقـان بجلال وجهه وعظيم سـلطانه، على نعمة الإسـلام والإيمان. ونُصلي ونُسلِّم على صاحب الفتح المبين سيِّدنا مُحَمَّد النَّبيّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نقف وقفات عند فتح مكة، عبارة عن بعض الدُّروس المأخوذة من إدارته ﷺ لهذه الغزوة، فأوّل قاعـدة نأخـذها أنَّ مَنْ هم في ذمة المسلمين ومَنْ هم في عهد المسلمين سلمهم سلم للمسلمين، وحـربهم حـرب على المسـلمين، لاحظـوا نحن نتحـدث عن مَنْ هم في عهد المسـلمين، فما بالك إذن بشـأن المسـلم مع أخيه المسلم: (المسـلم أخو المسـلم)[1]، فما يصـيب المسـلم في أيّ مكان هو إصابة لأخيه في أيّ مكان آخر. فالنُّصرة مطلوبة خاصّـة إذا كثُـرَ الظُّلم بالمسـلمين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ

(*) أصل هذا البحث محاضرة قُدِّمت بمجلس السِّيرة الأسبوعيّ، بتاريخ 9/9/1425هـ الموافق له 23/10/2004م.

(**) أستاذ مساعد بكلية القرآن الكريم بالجامعة، مدير إدارة التَّعليم الدِّيني بوزارة التَّربية والتَّعليم.

[1] (?) جزء من حديث في صحيح البخاريّ، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولايُسلمه، برقم 2310، 2/862. وأخرجه مسلم في باب تحريم الظُّلم، برقم 2579، 4/1996.

ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾ [النِّساء: 75-76].

إذن الموقف المتصوَّر إسلاميّاً للمسلم تجاه أخيه المسلم فهو محسوم، فهو أنْ يكون معه في خندق واحد، يعيش معه ما يلاقي، ويناصره بكافة ما يستطيع وبكافة ما يحتاج، إنْ احتاج إلى النَّفس فيكون نصره بالنَّفس، وإنْ احتاج إلى المال فتكون النُّصرة بالمال، وتكون بالدُّعاء أيضاً، ولا شكّ أنَّ كُلّ مسلم يحتاج إلى أخيه المسلم بأنْ يكون معه بالدُّعاء.

سُئِل البرامكة: لِمَ زال ملككم؟ قالوا: بدعوة مظلوم، غفلنا عنها ولم يغفل عنها الرَّبّ، فعسى الله تعالى بدعوة رجل أو بدعوة امرأة أنْ يُغيِّر حال قوم مسلمين من حال إلى حال. لذلك لا بُدّ أنْ نستحضر نصرة إخواننا المسلمين، في هذه الغزوة وفي هذا الحدث من أحداث السِّيرة.

الفائدة الأولى التي تُجنى لنا أنَّ الذين في ذمة المسلمين حتَّى من غير المسلمين والذي هو في عهدهم سلمه هو سلم للمسلمين، وحربه هو حرب على المسلمين، ذلك أنَّ السَّبب الأساس الذي أدَّى إلى أنْ ينطلق الرَّسول نحو مكة مخططاً وفاتحاً هو اعتداء قبيلة بكر على قبيلة خزاعة بعون من قريش، مخالفة بذلك لبند من بنود صلح الحديبية، الذي عقده الرَّسول مع أهل قريش، فجعل بينهم عشرة أعوام تضع فيها الحرب أوزارها، والذي يدخل في حرز المسلمين لا يتعرَّض له أهل قريش، والذي يدخل في حرز قريش لا يتعرَّض له أهل الإسلام. ولكن أهل الكفر ـ كعادتهم ــ ما داموا لم يعرفوا التَّوحيد، كيف لهم أنْ يحفظوا العهد مع عباد الله تعالى. فقالت بنو بكر أنْ يغيروا على خزاعة، واستعانوا بأهل قريش فأعانوهم، فقتلوا منهم مَنْ قتلوا، وأصابوا مَنْ أصابوا، وحتَّى بعد أنْ لجأ الخزاعيون إلى مكة ظاهر أهل قريش قبيلة بني بكر للنَّيل منهم. وهنا

انطلق سيّدهم وشاعرهم عمرو بن سالم إلى الرَّسـول طالباً النَّصر والعون، ومُنشداً هذه الأبيات:

يا ربَّ إني ناشـدٌ مُحَمَّدا   حلف أبينا وأبيه الأتلـــدا
قد كنتَ ولداً وكنَّا والدا   ثُمَّ أسلمنا فلم ننـزع يدا[1]
أنصر هـداك الله نصـراً أعتـــدا   وأدعو عباد الله يأتوا مددا
فيهم رســـول الله قد تجـــرَّدا   إن ســيم خســفاً وجهه ترّبـــدا
في فيلقٍ كـالبحر يجـري مزبـــداً   إنّ قريشــاً أخلفـــوك الموعـــدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا   وجعلـــوا لي في كلاب[2] رصـــدا
وزعمــوا أنْ لست أدعو أحـــدا   وهم أذلّ وأقــلّ عــددا
هم بيتوها بـالوتير هُجّـدا   وقتّلونا رُكّعــاً وسُـــجّداً

أتى إلى رسول الله ـ وحوله الصَّـحابة رضـوان الله عليهم ـ واستنجد بهذه الأبيـات، فأجابه الرَّسـول قـائلاً: (نصرت يا عمرو بن سالم)[3].

وهنا يعلّمنا الرَّسول الوفـاء بالعهـد، خاصّـة بالوفـاء للضَّـعيف، الـذي هو في حاجة إلى العـون وإلى النُّصـرة، وعلى طريقه كـان الصَّـحابة، سـيّدنا أبو بكر الصِّـدِّيق في أوّل خطبة بعد الخلافة أرسل للنَّاس: إنَّ الضَّـعيف عنـدي قوي حتَّى آخذ له الحـقّ، وأنَّ القـوي عنـدي ضـعيف حتَّى آخذ منه الحقّ آخذاً[4].

هذا الدَّرس من سيّد الخلق النَّبيّ (نصرت يا عمـرو

---

1 (?) في إشارة إلى إحدى جدات الرَّسول الخزاعيات.
2 (?) كلاب: المكان الذي كان فيه أمية، وفيه الوكيع من بنو بكر.
3 (?) انظر: الرَّحيق المختوم: للمباركفوريّ، نشر دار الوفاء، 1424هـ، 2003م، ص241. وسنن البيهقيّ الكبرى، مطبعة دار البناء، مكة المكرمة، 1414هـ، تحقيق مُحَمَّد عبد القادر عطا.
4 (?) سنن البيهقيّ الكبرى، 6/353.

بن ســالم)، ثُمَّ التفت الرَّســول إلى الصَّــحابة فقــال: (كـأنّي بـأبي سـفيان قد جـاءكم يشـدُّ العقد ويزيـدُ في المدة)[1].

وبالفعل ما هي إلاَّ أيام وأتى أبو سفيان إلى الرَّسول معتـذراً، جـاء نـازلاً في بيت بنته أم حبيبـة، وحينما أراد أنْ يجلس على فراش الرَّسول ، طوته عنه، فقــــال: يا بنـتي أرغبت بي عــن هـذا الفـراش، أم رغبت بـالفراش عــني؟ فقـــالت: هـو فــــراش رســــول الله ، وأنت مُشـركٌ نجس: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التَّوبـة: 28]، قـال: والله قد أصابك بعدي شيء[2].

هو يقصد الجنـون، ولكن الـذي أصـابها هو الإيمـان، الذي أصابها هو الارتباط بالحقّ وبالرَّسـول ، بعد أنْ أخذ هـذه النِّكاية من بنتـه، ذهب إلى الرَّسـول يعتـذر، فلم يجبه الرَّسـول ، فـأتى إلى سـيّدنا أبي بكر علَّه يشـفع، فلم يقل له كلمة واحـدة، وأتى إلى سـيّدنا عمـر، فقـال عمر: "أتأتيني لأشفع لك عند رسول الله، والله لو لم أجد إلاَّ الـذَّر لقـاتلتكم ولقـاتلتكم عليـه، فلو وجد فيهم فرصة في قتـالهم لقـاتلهم"[3]، وأتى بعضــهم إلى ســيّدنا عليّ فقــال: والله لا أملك لك شــيئاً، فنظر إلى بنته إلى زوج سيّدنا عليّ السَّـيِّدة فاطمة بنت رسـول الله ، وقـال لها مشيراً إلى ابنها: هلا حدثتيه أنْ يُجيرنـا، فقـالت: إنَّ ابـني صغير ما بلغ أنْ يُجير، ثُمَّ إنَّه مَنْ يُجير على رسول الله؟

وهكـذا رجع أبو سـفيان يُجرجر أثـواب الخيبـة، وهنا عزم الرَّسول في مباغتة قريش، وسـأل الله تعـالى أنْ يأخذ أبصارهم عنهم[4].

---

1 (?) البيهقيّ: دلائل النُّبوة، 5/8، وابن القيم: زاد المعاد، 3/ 396.

2 (?) السِّيرة الحلبيّة: لعلي بن برهان الدِّين، طبعة دار المعرفة، بيروت، سنة 1400هـ، 3/7.

3 (?) فصول من السِّيرة، 5/875، وزاد المعاد، 3/397.

4 (?) انظر: البيضاويّ، عبد الله بن عمر مُحَمَّد بن علي، الشّيرازيّ، البيضاويّ، 3/117.

ومن هنا نأخذ حكماً، وهو جواز مباغته العدو إذا نقض العهد، فإذا لم ينقض العهد ليس لنا أنْ نبدأ، ولكن إذا بــدأ هو فيجــوز مباغتته في أيّ وقت، نحن الآن في كثــير من اتفاقيّاتنا الـتي نعقـدها هنا وهنالك يقـوم العـدو فيغـير هنا ويغير هنا، ونستنكر ولا نتحرك، حتَّى نجده قد نال منا نيلاً عظيماً، متى ما بادر العــدو لنقض العهد فإنَّه يجــوز لنا أنْ نباغته في أيّ مكان يتبع له.

لذلك قدَّر الرَّسـول هنا أنْ يبـاغت، لأنَّ قريشـاً هم الذين بـدأوا، إذا لم يبـدأ العـدو بنقض العهـد، ليس لنا أنْ نبدأ، إذا خفنا من العـدو العـدول، ولكنه لم يبـدأ عمليّـاً: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: 58][5].

يجوز أيضاً أنْ يـؤتى العـدو في أمـره كُلّه وفي شـأنه كُلّـه، وفي أهله كُلّـه، هم الـذين شـاركوا قبيلة بـني بكـر، ليس كُـلّ أهل قـريش، ولكن الرَّســول حينما قــرَّر أنْ يفتح مكة كُلّها ويأخذ قريشاً كُلّها.

وهكذا نجد قوماً تبدو من بعضهم بـادرة ولم يقصــدوا ولا يأخذون بأيديهم، فإنَّ العاقبة تعود لـذلك التَّغيـير حينما فكَّر نفر منهم أنْ يغدروا بالرَّسول ، وقرَّروا أنْ يصـعدوا على الحائط الذي هو فيه ويرموه بصخرة فيرتـاحوا منـه، بعد أنْ ذكر الرَّسول عن طريق الوحي وغادره مسرعاً لم يطلب هــؤلاء فقط ويُلقي عليهم عقوبــة، وإنَّما أجلى يهــود بــني النَّضــير كُلّهم؛ لأنَّ هــذا الأمر يشــبههم كُلّهم، ويصدق عليهم كُلّهم، ولأنَّ هذا هدفهم كُلّهم[1].

وكــــذلك بنو قريظة حينما أعلنت طائفة لم تســــند الرَّسول ، هـذه الطَّــائفة لم يقتلها وحـــدها، وإنَّما قتل

---

5 (?) انظر: التَّسهيل لعموم التَّنزيل: مُحَمَّد بن أحمد الغرناطيّ الكلبيّ، طبعة دار الكتاب العربيّ اللّبنانيّ، 1403هـ، 2/64.

1 (?) الشَّيخ مُحَمَّد الأمين الشّنقيطيّ: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة دار الفكر، 1415هـ، 8/15.

جميع مقـــاتلي بـــني قريظة : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال: 25].

هذه الأحكـام نأخـذها من ممارسـات الرَّسـول في فتح مكـــة، كـــذلك مِمَّا يُعلِّمنا له الرَّســـول ونـــزل به القرآن، عدم جواز موالاة الكافرين، حـاطب بن أبي بلتعة صحابيّ جليل، شَهِدَ بدراً، والرَّسول يُعِدُّ في خفاء ليأخذ الله تعالى عنه قريش، ولكنَّ حاطب تأخـذه عاطفة تجـاه أسرته، بين أهل مكة، فيريد أنْ تكون له يد عليهم، فيُقرِّر أنْ يبعث رســـالة خفيّة إلى أهل قـــريش يخـــبرهم أنَّ الرَّسول يُعِدُّ في طريقه إليهم، وبالفعل كتب الرِّسـالة، واســـتأجر ظعينة (امـــرأة) لا يُشك في أمرها وعهد إليها بالرِّسالة، وأوضح لها إلى مَنْ تُسلِّم هذه الرِّسالة.

والرَّسول يحيطه ربه بما يحيطه، قال لسـيّدنا عليّ ولصـحابيين جليلين معـه، قـال لهم الثَّلاثـة: (اذهبـوا في طـريقكم إلى مكة في روضة كـذا سـتجدون ظعينـة، أي امرأة مسافرة، عندها خطاب ايتوني بهذا الخطـاب). أتى هـؤلاء الثَّلاثة في يقين؛ لأنَّهم يعلمـون أنَّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ ﴾[النَّجم: 3-4]، ووصـــــلوا إلى الرَّوضة ووجـــدوا الظَّعينـــة، وقـــالوا لها في ثقة وثبـــات: أخـــرجي الخطـــاب، قـــالت: ليس معي خطـــاب. قـــالوا: لتخـــــرجنّ الخطـــــاب أو لنُلقيَّ الثِّيـــاب، فلمَّا رأت فيهم الجديـــــة، طلبت منهم أنْ يعرضـــــوا، فأخرجته من بين ضفيرة شعرها وسلمته لهم.

حينما قُدِّم الخطاب إلى الرَّسول فتحه ووجـده من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل قريش، دعا حاطب وسـأله عن خبره: (أكفرٌ بعد إيمان أم مـاذا؟) فأقسم حـاطب أنَّه لم يكفر ولم يُبـــــدِّل، ولكنه خـــــاف على أهله بين أهل

قــريش، فــأراد أنْ تكــون له يد عليهم حتَّى يحســنوا إلى أهله، وصدَّقه الرَّسول في ذلك.

ولم يرض ذلك سـيّدنا عمر بن الخطـاب فقـال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هـذا المنـافق، فقـال النَّبيّ : (يا عمر لعلَّ الله اطّلع على أهل بدر فقـال: افعلـوا ما شئتم)[1].

ولكن كانت الآية الحاسمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا عَــدُوِّي وَعَــدُوَّكُمْ أَوْلِيَــاء تُلْقُــونَ إِلَيْهِم بِــالْمَوَدَّةِ وَقَــدْ كَفَــرُوا بِمَا جَــاءكُم مِّنَ الْحَــقِّ يُخْرِجُـونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَــرَجْتُمْ جِهَــادًا فِي سَــبِيلِي وَابْتِغَــاء مَرْضَــاتِي تُسِــرُّونَ إِلَيْهِم بِــالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْـهُ مِنكُمْ فَقَـدْ ضَـلَّ سَوَاء السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: 1].

وها هو يبيّن لنا فضل السَّبق في أعمال الخـير، فأهل بــدر كــانوا أهل ســبق في الإيمــان، وأهل ســبق في التَّصــديق، وأهل ســبق في الإخلاص، وأهل ســبق في الجهاد وفي الصَّبر والثَّبات، لذلك نالوا هذه المكانة: (لعلَّ الله اطّلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم).

قال بعض الغلاة من هذا التَّعليق: إذا ثبت للمســلمين وهم في حالة حرب أنَّ بعضـهم يتعامل مع العـدو لهم أنْ يقطعوا رأسه، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الرَّسول هنا احتج على عمر بأنَّ هذا من أهل بـدر، وأنَّه لعـلَّ الله اطّلع على أهل بـدر، فقـال: افعلـوا ما شـئتم ، هـذا اسـتنباط واسـتنتاج استنتجه بعض العلماء، وعلّه يتعامل على أساسه أخوة لنا في العراق اليوم.

السَّــبق في كُــلّ شــيء له خصوصــيته، السَّــبق في المساجد، والسَّبق في مجالس العلم، والسَّــبق بالإنفـاق، والسَّبق بالجهاد، وفي كُلّ شيء، وعلى هذا اقرأوا تفسير

---

[1] (?) الرُّوض الأنف، 4/51.

قوله تعـــــــالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)﴾ [الواقعـــــة: 10-12][1]، والله تعـــــالى نبَّه إلى لفظ المســـارعة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)﴾

[آل عمران: 133].

إذن دائمـــاً نحمل أنفســـنا على أنْ نكـــون من أهل المسابقة والمسارعة في مختلف أعمال الخير.

ننطلق ونذهب إلى حلقة أخرى من حلقات فتح مكة، وسـيّد الموقف هنا هو أبو سـفيان بن حـرب، الرَّسـول ﷺ بعد أنْ عــــزم على المســـــير وجهّز جيشه واســـــتنفر المسلمين من حوله وبلغوا العشـرة آلاف، وانطلقـوا نحو مكـة. وأبو سـفيان كـانت تحدثه نفسه من أنَّ اعتـداءهم على بــــني خزاعة لن يفوته الرَّســـول ﷺ، وقد أصـــبح المسلمون في قـوّة وفي عـزة وفي منعـة. لـذلك تحـرك في مجموعة من قومه ليلاً في طريقه نحو المدينة ليعرف الخبر، وإذا به بنيران عظيمة، وبدأ يتسـاءل نـيران من هذه؟ ومَنْ يقصدون في هذه الأثناء؟ العبـاس بن عبد المطلب أتى يُريد أحداً يوصـيه إلى أهل قـريش أنْ يـأتوا إلى الرَّسـول ﷺ مستسـلمين، فـإنَّهم لا قِبَل لهم بـه، أبو سفيان يتحدَّث والعباس يسـمع، فقـال أبو سـفيان: قـال أبو الفضل أتاه وقال له: اركب، والله قد أتـاكم مُحَمَّد بما لا قِبَل لكم به، فلننطلق إلى رســول الله ﷺ قبل أنْ يقتلنا قاتـل، لما علم أنَّ هـذه من وراء المسـلمين، وأنَّهم أتـوا يقصدون مكة، اقتنع العباس وركب معهم وأردفه العبـاس على فرسه والوقت ليل[2].

---

1 (?) انظر: التَّفسير الكبير: لفخر الدِّين الرَّازيّ، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، ط/1، 1421هـ، 4/121.

2 (?) الخصائص الكبرى: لجلال الدِّين السُّيوطيّ، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، 1405هـ، ص 436.

أتى العبـاس ينطلق في وسط المسـلمين، ونظر إليه سـيّدنا عمر من بعيـد، فـانطلق نحو أبو سـفيان قـائلاً: لا نجــوت إنْ نجــا، ولم يصــلهم إلاَّ وقد وصل العبــاس إلى رســول الله وقــال: قد أجــرتهم يا رســول اللــه، قبل الرَّسـول هـذه الإجـارة، وعمر يتحسَّـر لأنَّه لم يلحقهم، وقال النَّبيّ للعباس: (اسأل به وائتني به صباحاً)[1].

في صـــبيحة اليـــوم التَّالي أتى العبـــاس ومعه أبو سفيان، فقال الرَّسول : (ويحك يا أبا سفيان، أما آن لك أنْ تشهد ألا إله إلاَّ الله)؟

وخرج منه المسلمون خفية متسـللين ومسترشـدين، وهـاهو ذا يـراهم ولا يـرمي آخر لهم، فقـالوا: ويحك يا أبا ســفيان، أما آن لك أنْ تشــهد ألا إله إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسـول اللـه؟ قـال: بـأبي أنت وأمي ما أفضـلك وأكرمك وأوصـــلك، لقد ظننتُ أنْ لو كـــان مع الله إله غـــيره لقد أغنى عني شيئاً بعده. ثُمَّ سأله رسول الله سؤالاً آخـر: (ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أنْ تشهد أنِّي رسول اللـه) فقال: ما أفضلك وأكرمك وأوصلك، أما هــذه ففي نفسي منها شــيء. قــال العبــاس: ويحك يا أبا ســفيان، أســلم تســلم، قــال: أشــهد ألا إله إلاَّ اللــه، وأشــهد أنَّ مُحَمَّداً رسول الله[2].

وهنا نأخذ درساً عظيماً، وهو ليس بالضَّــرورة أنْ يبلغ الإنسان في أوّل وهلة وأوّل لحظة تمام الإيمان، العبــاس أراد لأبي ســـــفيان أنْ ينطق بالشَّـــــهادتين، حينما ينطق بالشَّــهادتين حتَّى يغلب نفسه على الجــزء الآخــر، ولكن حينما ينطق فإنَّه بـــذلك يتهيّأ لأنْ يجلس مع المســـلمين، وإنَّه بــذلك يســمع من المســلمين، ويُعــدَّ منهم ويكتمل الإيمـان بعد ذلك ويـزداد. وهـذا ما قد كـان؛ بل قد تحقَّق

1 (?) البيهقيّ: دلائل النَّبوة، 5/33.
2 (?) السِّيرة النَّبويّة: لابن هشام، تحقيق طه عبد الرَّؤوف سعد، طبعة دار الجيل، بيروت، ط/1، 14011هـ، 5/60.

الإيمان في قلبه، وقبل أنْ يرجع الرَّسول أمر العباس ـ بعد أنْ نطق أبو ســـفيان بالشَّـــهادتين ــــ أنْ يجعله عند المضيق في الوادي وأنْ تمر عليه الكتائب كُلَّها.

فوقف أبو سفيان والعباس بجواره، ويمرّ المســلمون فصـيلة فصـيلة، وكتيبة كتيبـة، وقبيلة قبيلـة، وبلـدة بلـدة، ويسأل أبو سفيان: مَنْ هـؤلاء؟ ويجيبه العبـاس، حتَّى أتى قوماً في قوّة شديدة، وفي بـأس شـديد لا يُـرى منهم إلاّ الحدق والحديـد، سـأل أبو سـفيان: مَنْ هـؤلاء يا عبـاس؟ قال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، استغرب الرَّجل وتعجّب، فقال: لقد أضحى ملك ابن أخيك عظيمـاً، قـال العبـاس: يا أبا سـفيان إنَّه ليس الملـك، إنَّها النُّبـوة، إنَّها النُّبـوة، فصـدَّق أبو سـفيان بهـذه النُّبـوة، وامتلأ قبله إيماناً وتصديقاً[1].

ونأخذ هنا درســـاً آخر وهو أنَّ القلـــوب بين يــــدي الرَّحمن يقلّبها كيف يشاء، لا نيـأس من عـاصٍ، ولا نيـأس من كــافر، وتبلّغ الــدَّعوة للجميــع، لا نيــأس من نصــر، وننتظــره من الله تعــالى في أيّة لحظــة: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ ﴾ [يس: 82].

أبو سفيان الذي ذهب وخرج مع قـريش ليعـرف خـبر النَّبيّ وأصحابه ليُعدّ العدة والرِّجال، فإذا به يأتي قــافلاً وراجعاً مؤذناً في النَّاس: إنَّ مُحَمَّداً أتاكم بما لا قِبَل لكم به، أتت زوجه هند بنت عتبة وهو يُحدّث النَّاس عن القـوّة وعن ما رآه قالت: اقتلـوا هـذا الكميت الفسل[2]، أي هـذا السَّمين الجبان، قـال: لا تغـرَّنكم هـذه، والله أتـاكم بما لا قِبَل لكم بـه، ثُمَّ أذَّن فيهم: مَنْ دخل دار أبي سـفيان فهو آمن، قــالوا: قاتلك اللــه، ما تُغـني عنا دارك، قــال: ومَنْ دخل المســـجد الحـــرام فهو آمن، ومَنْ دخل داره فهو

---

1 (?) الرَّوض الأنف، 4/157.
2 (?) زاد المعاد، 3/404.

آمن[1].

فـــانطلقوا إلى دورهم، وإلى دار أبي ســـفيان، وإلى المسجد الحرام.

من هـــذا الموقف نأخذ درســـاً وهـــو: أنَّه بالتَّضـــحية وبالإيمــان وبالصَّــبر وبالثَّبــات يتبــدّل الضَّــعف إلى قــوّة، وتتبدّل القلّة إلى كثرة، ويتبــدّل الــذُّل إلى عــزّ، انظر إلى الرَّسول ﷺ وصحابته كيف كانوا في البداية، وكيف هاجروا من مكـــة، وكيف أُخرجـــوا، وكيف قُتلـــوا، وكيف عُـــذبوا، وانظر كيف يكونــون حين خرجــوا، وانظر إليهم كيف أتــوا إلى مكة فاتحين عزيــزين مكــرمين، فبالصَّــبر وبالتَّضــحية وبـــالإخلاص وبالإيمـــان وبالثَّبـــات، أيضـــاً حـــازوا النَّصر والتَّمكين[2].

من الدُّروس التي نأخذها هنا براءة نفوس المسلمين وصـفاؤها، لا يتعـاملون بالحقد وبالحسد وبالانحطـاط، أبو ســفيان ـــ الــذي كــان أحد قــادة قــريش والــذي فعل بالمســلمين الأفاعيل ـــ أوّل ما ينطق بالشَّــهادتين يُقــرِّر الرَّســـول ﷺ إكرامه وتشـــريفه، فيجعل داره صـــنواً في مسألة الأمن مع البيت الحرام: (مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن).

فنحن في حاجة إلى أنْ نصـفّي نفوسـنا تجـاه الجميع من الأحقـاد ومن الحسد ومن الغِل ومن البغضـاء، وأكـثر المشـــاكل الـــتي بين المســـلمين اليـــوم تنجم عن هـــذه الأمراض الفتاكة بالمجتمعات والجماعات.

كذلك نأتي لتـأمُّلات في كيفيّة دخوله ﷺ مكـة، إنَّ في كُـلّ خطــوة كـان يُعلّمنا دروســاً، فيما رواه البخــاريّ أنَّ رســـول الله ﷺ وهو يُرجِّع ســـورة الفتح اللَّحظـــات الـــتي يدخل فيها مكـة، كـان يُرجِّع ويـترنّم بسـورة الفتح، عـادة

---

1 (?) السِّيرة النَّبويّة، لابن هشام، 5/60.

2 (?) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، طبعة دار الفكر، بيروت، 1401 هـ، 3/202.

الأبطال والقادة في لحظات النَّصر كثـيراً ما ينسـون الله تعالى، ويعتقدون أنَّهم هم سـبب هـذا النَّصر وأنَّهم سـبب هذه النَّجاح، ولكن الرَّسول يعلّمنا هنا أنْ نـردّ كُـلّ نصر وكُلّ فوز وكُلّ فلاح إلى الله تعالى، لم يقـل: فكّرنـا، ولم يقل: قوينا أنفسنا، ولم يقـل: حرَّرنـا، ولكن قـال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: 1] يُردِّد هـذه الآيـات رداً للأمر إلى الله تعـالى، واعترافـاً بحوله وقوّته وقدرتـه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: 17].

كـذلك إنْ كـان القـادة في هـذه اللَّحظـات يرفعـون رؤوسهم، ويرفعون أصواتهم، ويأخذهم العُجب، ويأخــذهم الغـــرور، ويحســـون أنَّهم هم هم، الرَّســـول في هـــذه اللَّحظـات وهو يـدخل مكة وجميع الأنظـار ترقبـه، كـان منحنيـاً على دابتـه، حتَّى كـاد عقنونه (مقدمة الأنـف) أنْ يلامس أوسط راحلته تواضعاً لله تعالى.

فَمِمَّا علّمنا له الرَّسـول حرصـه الشَّـديد على حقن الدِّماء، لم يقل: هؤلاء الذين فعلوا بنـا، واليـوم قـد مُكِنتم منهم فلتفعلوا بهم الأفاعيل، وزّع الجيش يـدخل مكـة من أنحائها كُلّها، حتَّى لا يفكر أهل مكة في المواجهة، ثُمَّ قال لهم: (لا تقـاتلوا إلاَّ مَنْ يقـاتلكم)[1]. وبالفعـل خضـع لـه الجميع، ولم تكن مجموعة مواجهـة إلاَّ مجموعـة خالـد بن الوليـد، واجهتهم مجموعـة كـانت تُعِـدُّ لقتـل الرَّسـول ، منهم حماس بن قيس بن خالد كان يُعِدُّ السِّـلاح ويصـلحه من وقت لآخر، فسـألته امرأتـه، فقـالت لـه: مـاذا تريـد؟ قال: أريـده لمُحَمَّد وأصـحابه. قـالت لـه: لن تتمكّن منـه. قــال لهــا: ســأقدمك بعضــهم، أي ســأتمكّن منهم وآتى

1 (?) انظر: وصيته حين غزوة مؤتة (اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوا الله وعدوكم بالشَّام، وستجدون منها رجالاً في الصَّوامع معتزلين فلا تتعرَّضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناءً). السِّيرة الحلبيّة، 2/787.

ببعضهم أذلة كي يكونوا في خدمتنا في الـبيت، هـذا كـان من ضمن المجموعة التي واجهت خالد بن الوليد، وكـانت بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، هذا الرَّجل وهو يُصلح أسلحته كان يترنّم بأبيات:

إنْ يكمل اليــوم فما لي علّة — هـــذا ســـلاحٌ كامل وإلا

وذو غرارين سريع السَّلا

يتســلّي ويــترنّم بهــذه الأبيــات معبِّراً عن اســتعداده للرَّســول ، حتَّى خـــرج مـــع المجموعـــة الـــتي أرادت المواجهة، وبعد أنْ قُتِلَ منهم مَنْ قُتِلَ، وفرَّ منهم مَنْ فــرَّ كان هو ضمن الفارَّين أتى إلى زوجته وقـال: أغلقي عليَّ الباب، ذكَّرته بتلك الأبيات التي كـان ينشـدها، فقـال لهـا: إنك لو شـاهدت يـوم الخنـدق (المكـان الـذي كـانت فيـه المواجهة بينهم وبين مجموعة خالد بن الوليد:

إنَّك لو شـــهدت يـــوم الخندقة — إذ فـــرَّ صـــفوان وفـــرَّ عكرمة

واســـتقبلتنا السُّـــيوف المســـــــــــلمة — يُقطعّن كُــــلّ ســــاعدٍ وجمجمة

ضـــرباً فلا تســـمع إلاَّ غمغمة — لهم نهيت خلـــــــــفنا وهمهمة

لم تنطقي باللَّوم أدنى كلمة[1]

أي اعذريني في هذا الأمر، فكان الرَّسـول حريصـاً على أنْ تحقن الدِّماء، ولَمَّا أخبر بمن قتل وكـانوا حـوالي عشــرين أو يزيــدون قليلاً اســتنكر ذلــك، ولَمَّا علم أنَّهم بــدءوا بالمقاتلة وبالمواجهــة، قــال: (قــدَّر الله وما شــاء

[1] (?) أبيات حماس بن قيس هذه أوردها المباركفوري في الرَّحيق المختوم، ص347، وابن قيم في: زاد المعاد، 3/405.

فعل).

انظروا إلى سماحة الإسلام في اللَّحظة التي يكونون فيها متمكـــنين لم يكن التَّفكـــير في الانتقـــام وفي إراقة الـدِّماء، ولكن كـان التَّفكـير في أنْ يكونـوا سـالمين، وأنْ يـأتوا إلى الله تعـالى مسـلمين، لـذلك الرَّسـول كـان حريصاً على هذا الأمر، قال: (قدَّر الله وما شاء فعل).

من الـدُّروس الـتي نأخـذها أنَّ الباطل لا محالة إلى زوال، انظروا إلى قريش أين كانت، وانظروا إلى الأصنام أين كانت تُعبد، وكيف كان يُتقـرّب إليهـا، هـاهي ذي دولة قريش تزول، وهاهي الأصنام يسقطها الرَّسـول واحـداً واحداً، ويقول: (قُل جاء الحقُّ وزُهِقَ الباطـل، إنَّ الباطـلَ كان زهوقاً)[1].

وهــذا المصــير هو مصــير كُــلّ الأقــوام المســتكبرة الكافرة، في السَّابق أو في الحاضر أو في المستقبل في الماضي، اقـرأوا قـول الله تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر: 6-14].

وإن شاء الله تعالى فإنَّ قـوى البغي والعـدوان الـتي تتمثَّل اليــوم لســان حــال فرعــون: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ ﴾ [النَّازعــات: 24]، ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غــافر: 29]، فــإنَّ مصــيرها هو نفس المصــير عــاجلاً أم آجلاً: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧ ﴾ [آل

---

1 (?) دلائل النُّبوة: للأصفهانيّ، تحقيق مُحَمَّد مُحَمَّد الحداد، طبعة دار طيبة، الرِّياض، السُّعوديّة، ط/1، 1409هـ. وانظر:الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله : لأبي الرَّبيع سليمان بن موسى، 2/226.

عمـران: 196-197]. زالت دولة قـريش، وزالت قدسـيّة الأصنام، ووقف الحقّ شامخاً مرفوع الرَّأس والجبين، وها هو ذا الرَّســـول يحشد له أهل قـــريش كلهم ويخطب فيهم: (لا إله إلاَّ الله وحـده لا شـريك لـه، صـدق وعـده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحـده، كُـلّ مفخـرة أو دم أو مال في الجاهليّة فهو تحت قـدميّ هـاتين إلاَّ ما كـان من سدانة البيت وسقاية الحاج)[1].

كُلّ ما هو من مظاهر الـدُّنيا مِمَّا يتبـاهى به ويتفـاخر، أعلن لهم في ذلك اليوم أنَّه: (تحت قدميَّ هاتين)، وأنَّه لا مجال إلاَّ لذكر الله تعالى، وإلاَّ للارتباط بالله تعـالى، وإلاَّ لسِّقاية الحجّاج، وإلاَّ للأعمال الصَّالحة.

ومن هذا القبيـل: (يا معشر قـريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعصُّبها بالآباء، النَّاس من آدم، وآدم من تــراب، وتلا قوله تعــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجـــرات: 13]، ثُمَّ واصل خطبتــــه: (يا أهل مكة ما تظنـون إنّي فاعـلٌ بكم؟) قـال الـذين هم في عمـره: أخٌ كريم، وقال الذين هم في عمر آبائه: ابن أخٍ كريم، فقــال : (اذهبوا فأنتم الطّلقاء).

فلمَّا رأوا هـذا الكـرم وهـذه السَّـماحة وهـذا الجلال المُحَمَّديّ، انطلقــوا يشــهدون ألا إله إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رســول اللــه، وأدّوا البيعة إلى النَّبيّ من الرِّجــال ومن النِّساء.

وهكــذا كــانت البيعة من الرِّجــال ومن النِّســاء لا عن إكراه ولكن عن إيمان فلقد رأوا ما كان عليه الرَّسـول وأصحابه في السَّابق، وما وصلوا إليه الآن، وتبيّن أنَّ ذلك لا يمكن أنْ يكون إلاَّ بهذا الـدِّين، وأنَّ هـذا الـدِّين ليس إلاَّ من عند الله تعــــالى، فــــدخلوا في دين الله

---

[1] (?) دلائل النُّبوة: للأصفهانيّ، 5/85.

أفواجاً، وصوَّر القرآن هذا المشهد: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ [النَّصر: 1-3].

ها هو ذا الرَّسول الذي خرج متخفياً ومطلوباً القبض عليه حيّاً أو ميتاً في أعلى المنعة، ويتلقّى البيعة من الجميع، وها هو ذا بلال الذي كان يُجرّ ولا يجد غير أنْ يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ ها هو ذا يصعد في أعلى مكان، ويعلن: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إلا الله وأنَّ مُحَمَّداً رسول الله.

وفي هذه اللَّحظات واحد من أهل مكة تحدّثه نفسه بأنَّ مُحَمَّداً الآن منشغلٌ بالبيعة، وبعظمة الانتصار، وأنَّ أصحابه كذلك فرحون، وأنَّه يمكن له أنْ يقتله، فأتى قُبالة بن عمير بن الملوح، متجهاً نحو النَّبيّ ومعه سلاح يخفيه ليقتل به النَّبيّ ، والنَّبيّ يخطب، ولمَّا رآه متجهاً نحوه، قال: (أقبالة؟) قال: نعم، قال: (ماذا كنت تحدّث به نفسك؟) قال: لا شيء، أذكر الله. قال الرَّسول وهو يبتسم: (استغفر الله يا قُبالة)، ووضع يده على صدره، قال قُبالة: والله ما رفع يده إلاَّ وكان أحبّ خلق الله إليَّ[1]، فامتلأ قلبه محبة للنَّبيّ وإيماناً بدينه، فرجع ومرَّ على امرأة كان يجالسها وتؤانسه، فدعته إليها، فقال:

قالت: هلمَّ إلى الحديث، فقلت: ... لا يأبى عليك الله والإسلامُ
لو قد رأيتِ مُحَمَّداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنامُ
لرأيتِ دين الله أضحى بيِّناً ... والشِّرك يغشى وجهه الإظلامُ

---

[1] (?) ابن قيم: زاد المعاد، 3/412.

وصـــلَّى الله على ســـيّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصـــحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.